

شعرية الصمت في رواية "فوضى الحواس" لأحلام مستغانمي

The Poetry of Silence in the Novel "Chaos of the Senses" by Ahlam Mosteghanemi

ط.د. فلاح نوال

nnawal505@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف - الجزائر

ملخص:

مُصْطَلَح الصَّمْتِ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي اتَّخَذَتْ مَفَاهِيمَ مُتَعَدِّدَةً وَمُتَنَوِّعَةً بِحَسَبِ الْقَرْنِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ، وَالصَّمْتُ أْبْلَغُ مِنَ الْكَلَامِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ وَأَقْوَى تَعْبِيرًا عَمَّا يَحْتَاجُ فِي الْوَجْدَانِ وَالْخَاطِرِ. وَهُوَ لَعْنَةُ هَا خَصَائِصِهَا التَّعْبِيرِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَى الْأَدَبِ فِي جَمِيعِ أَجْنَاسِهِ، وَلِلصَّمْتِ أَنْوَاعَةٌ وَأَشْكَالُهُ، فَقَدْ جَاءَ الصَّمْتُ صَرِيحًا، وَصَمْتُ خَفِيٍّ، مَعَ سَبِيلٍ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ، وَصَمْتُ يَأْتِي بَيْنَ الْمُفْرَدَاتِ، وَآخَرُ إِلَى جَانِبِهَا. وَيَقُومُ عَلَى لَفْتِ الْإِتْبَاهِ بِمَا يَحْتَوِيهِ مِنَ الْعُنَاوَةِ، إِضَافَةً إِلَى مَا يَتِمُّظْهَرُ بِهِ مِنَ الْغُمُوضِ وَالْفَرَاغِ اللَّذَيْنِ يَقُودَانِ إِلَى التَّأْوِيلِ الْفَنِيِّ لِلْكَشْفِ عَنْ دَلَالَتِهِ وَإِشَارَاتِهِ.

وَأَنْطِلَاقًا مِنْ هَذَا جَاءَ عُنْوَانُ الْمَدَاخِلَةِ مُوسَمًا ب: "شِعْرِيَّةُ الصَّمْتِ فِي رِوَايَةِ" فَوْضَى الْحَوَاسِ " لِأَحْلَامِ مُسْتَغَانِمِي. "نَسْعَى فِي هَذِهِ الْوَرَقَةِ الْبَحْثِيَّةِ إِلَى دِرَاسَةِ الصَّمْتِ فِي الرِّوَايَةِ بِالْكَشْفِ عَنْ جَانِبٍ جَدِيدٍ مِنْهَا لَمْ يَلْقَ حَقًّا وَافِرًا مِنَ الدِّرَاسَاتِ التَّطْبِيقِيَّةِ فِي السَّرْدِ الرِّوَايِيِّ. وَهَذَا بِطَرَحِ الْإِشْكَالِيَّةِ: مَا هُوَ الصَّمْتُ؟ وَكَيْفَ وَظَّفَتْ الرِّوَايَةُ لَعْنَةَ الصَّمْتِ فِي رِوَايَتِهَا؟

الكلمات المفتاحية: شعرية؛ الصمت؛ فوضى الحواس؛ أحلام مستغانمي.

Abstract:

The term silence of terms that have taken multiple and varied concepts by art in which it has been received, and silence informed of speech in some places and the most powerful expression of what is mixed in the face and risk. It is a language for its emergency characteristics at the level of literature in all its nations, and for its forms and forms, the silence came frank, and silent hidden, with a torrent of vocabulary, and silent between vocabulary, and another beside her. It is based on drawing attention to the elements it contains, in addition to the

apparent ambiguity and emptiness that lead to artistic interpretation to reveal its connotations and indications.

"The poetic poetry in the novel" chaos "of the senses," he said. This raises the question: What is silence? And how did the novelist employ the language of silence in her novel?

Keywords: Poetry; silence; chaos of the senses; Ahlam Mosteghanemi.

1. مقدمة:

"كلّ صفحة بيضاء في كتاب، هي مساحة مسروقة من الحياة، لأنها تصلح بداية لقصة أخرى أو كتاب آخر." ¹

يُختلّ موضوع الصمت أهمية كبيرة لدى النقاد، لما فيه من غموض وترويز فهو بحاجة إلى تأويل للكشف عن دلالاته وإشاراته، يلجأ الكاتب في الغالب إلى الصمت أو الشكوت، مخلفاً من وراء ذلك فراغات وفجوات صامتة، مما يتطلب من القارئ جهداً للكشف عنها. وقد اتخذ مفهوم الصمت في الرواية أشكالاً متنوعة ومتعددة، بحيث أنّ الكاتب يعيش مع كلّ رواية جديدة صعوبات، فراه مؤجج الأفكار، يطوّع اللغة والحروف، حتى تكتمل إنجازاته المعرفية، إلا أنه وفي حالات أخرى قد لا تُسغفه اللغة إمّا اختياراً، أو اضطراراً، فنجدّه يستعين بالصمت، مُتخذاً منه قوّة إيجابية لطرح أفكاره الخفية، ومحققاً لجذب مُتلقيه حتى يملأ فراغاته، ويشاركه روايته، ومن هنا كان للصمت دوراً بارزاً خاصة في الرواية. ولكلّ كاتب مُعجمه الخاص يستمد منه مُفرداته في تجاربه الانفعالية، ومنه تتخذ الكلمات فيها وزناً أثقل من الوزن الذي تحمله الكلمات نفسها فالسياق هو ما يمنحها شاعريتها.

ومن بين الروائيين نجد أحلام مستغانمي التي نراها تنحّ في كثير من نصوصها الروائية من هوامش الصمت وما يُشبهه من قول خافت لطيف، سواء جاء صمناً اضطرارياً أو اختيارياً فهو يعتبر مبدأً جمالياً، إضافة إلى أنّ الصمت في الرواية النسائية يحقق كشفاً دلالياً وجمالياً لكون رؤيتهن قد تختلف عن رؤية الكتابة الذكورية في الكشف عن قضايا الواقع الاجتماعية والأيدولوجية والسياسية. ²

1- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط5، 1998، ص171.

2- ينظر: باية غيبوب، قراءة في صخب الصمت في رواية "بحر الصمت" لباسمينه صالح، دراسات لسانية، لونيبي علي، الجزائر، مجلد 4، العدد 1، 2020، ص226.

2.2. تعريف الصمت:

1.2. لغة: ورد في لسان العرب: "صَمْتُ يَصْمُتُ وَصَمْتًا وَصَمُوتًا وَصَمَاتًا، وَأَصْمُتُ أَيَّ أَطَالَ السُّكُوتُ، وَالتَّصْمِيْتُ هُوَ التَّسْكِيْتُ وَالسُّكُوتُ"³ وقد وردت لفظة الصمت في معجم الوسيط تحمل المعنى نفسه من حيث المضمون على النحو التالي: "رَمِيَتْهُ بِصَمَاتِهِ وَسَكَتَهُ أَيَّ بِمَا صَمَتَ وَسَكَتَ، وَأَصْمَتْهُ أَيَّ أَسَكَّتَهُ، وَيُقَالُ: إِمْرَأَةٌ مُصَمَّمَةٌ أَيَّ سَاكِتَةٌ لَا تَتَكَلَّمُ"⁴. فدلالة الصمت في المعاجم العربي تعني قطع الكلام ووقف التلفظ بالصوت.

1.2. الصمت عند علماء اللغة والبلاغة:

لا يختلف مفهوم الصمت عند علماء اللغة والبلاغة كثيراً عن مفهومه عند أهل المعجمات، فعلماء اللغة والبلاغة يصطلحون عليه بـ(الإيجاز والحذف)، واعتبروه عنصراً له من الأهمية البالغة في السياق العام للفظ، حيث يكون أحياناً أبلغ من الكلام وقد عُرِفَت البلاغة عندما سئل بعضهم عنها بأنها: "الإيجاز من غير عجز"⁵ وقال ابن الأعرابي: "فقلت للمفضل ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد"⁶ والحذف والإيجاز من أبرز مظاهر الصمت الذي هو عدم الكلام والنطق، فالحذف والمتروك من الكلام مسكوت عنه فـ"الحذف صمت، والصمت أعلى درجات الإفصاحية في اللغة العليا، وهو صنو الصوت والصورة"⁷ وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى الصمت بقوله عن الحذف "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، وال صمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين."⁸ وبهذا يكون قد تفتن إلى مزايا الحذف وتطرق إلى أسرارهِ العجيبة

3- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة (ص، م، ت)، المجلد 2، ص 212.

4- الزبيدي محمد مرتضي الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد العليم الطحاوي، ج 4، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط 2، 1987، ص 591.

5- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د. ط، 1423هـ، ص 67.

6- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ص 99.

7- عباس محمد رضا، العلامة البصرية والبنى الرامزة (قراءة في شعر الهادي الفرطوسي وسردياته)، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط 1، 2012، ص 68.

8- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط 3، 1992، ص 146.

التي تزين الكلام بسحر البلاغة والتنميق في ألفاظها ومعانيها ولو كانت موجزة. ويرى اللغويون والبلاغيون أنّ للصمت القدرة على الإبلاغ والإبانة.

3.2. الصمت في السرد الروائي:

إن البحث في ظاهرة الصمت في النصوص السردية هي ظاهرة حديثة العهد، تستدعي الكثير من التمعن لكشف الصمت وأنواعه في النصوص، ويشغل حيزاً مهماً في مكونات الرواية والصمت حسب هافال (Heuvel) "تلفظ غائب أو بالغياب (un acte énonciatif in absentia) وهو عكس النطق والكتابة المجسدين في الصوت والخط لا ينشئ ملفوظاً لسانياً (un énoncé linguistique) وإنما يدرك وجوده بعلامات في النص تشير إليه مثل الفراغ (vide) والغياب (absence) والفجوة في الكتابة (interstices de l'écrit) وتخفيض حجم المقول.⁹ يختلف الصمت الممارس في ثنايا النصوص السردية من حذف أو فراغات أو بياض أو إخفاء أو غيرها من أنواع الصمت بغيت تحقيق وظائف سردية إما جمالية أو ما عجز القلم عن كتابته، وهنا يكون الصمت أبلغ وأكثر تأثيراً من الكلام فهو ليس فراغاً من المعنى.

يحمل الصمت في طياته دلالات أكثر من اللغة، "فقد يلجأ المتحاور إلى الصمت، ويمكن له أن يفهم وهو صامت، بل قد يكون الصمت أعمق دلالة من ثرثرة تُغيب المعنى وتعطل الفهم."¹⁰ فهو يعبر عن الأحاسيس والواقع بشكل أوضح. ويعدّ مفهوم الصمت من أهم المفاهيم التي "تثير مشكلة إبداعية جدلية بوصفه ثيماً متعالية ببعديها الفلسفي والجمالي،"¹¹ فهو يعتبر لغة غير منطوقة تمثل حواراً استفزازياً للقارئ لما يحدث فيه من تخيل وتأويل داخل النص الروائي.

لا يدرج الكاتب الصمت في نصوصه عشوائياً بل يضعها حين تكون مشاعره أكبر من الكلمات، "والنص الروائي يجد نفسه مضطراً في الغالب، إلى الصمت أو السكوت تاركاً المزيد من الفراغات والفجوات الصامتة التي تتطلب جهداً استثنائياً فاعلاً من جهة التلقي والقراءة، ويمكن أن نرجع الكثير من مظاهر الغموض والتميز والتشويش في الخطاب الروائي العربي إلى تزايد المساحات البيضاء والممحاة من النص المكتوب. ولا شك أن التعرف إلى بواعث عمليات الإقصاء والحذف إشكالية معقدة ومتراصة. ...، كما يلجأ الروائي أحياناً إلى عمليات حذف

9- محي الدين حمدي، مدخل إلى الصمت في النص السردية، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، العدد 8، جانفي 2011، ص 10.

10- عمار بشيري، تجلي الصمت في "هواجس غير منتهية" لعبد الله أبي الهيف، مجلة إشكالات، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر، العدد الثالث، 2013، ص 70.

11- عباس محمد رضا ومهدي عبد الأمير مفتن، مصطلح الصمت، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 24، كانون الأول 2015، ص 218.

جمالي لتجنب المباشرة والتصريح وتغيب الانساق والبنى السردية.¹² النصوص الصامتة التي تكتسح المجهول، تجعل المتلقي يساهم في إكمال عمل الكاتب وكأنه يشاركه في الكتابة، وهذا ما يثر لدى المتلقي رغبة شديدة في كشف أسرار ومفاتيح النص وما يتوارى فيه من دلالات مخفية.

يُعتبر الصمت كأنّه عملية تخاطب سواءً كانت واعية أو غير واعية، يأتي بعدة أوجه منها: فراغاً نصياً وبياضاً ونقصاً خطياً وهو يساوي أو يفوق دلالة الكلام، وبهذا يقصد بالصّمت في معناها الجوهرى فعل تلفظي ساكت مسجل في الخطاب بطريقة سببية.¹³

ملخص الرواية:

بعد نجاح "ذاكرة الجسد" أصدرت "أحلام مستغانمي" الجزء الثاني من ثلاثيتها "فوضى الحواس"، تدور أحداث الرواية حول كاتبة متزوجة، ورجل غامض يحمل اسم "صاحب المعطف"، هي أحداث جعلت للحواس فوضى، تتراوح بين كلمات عديدة أهمها "بدءاً، طبعاً، حتماً، دوماً، قطعاً" تدل على رجل صاحب قرارات قاطعة، وفئة كانت تحب الصيغ الصبغانية والجمل الواعدة ولو كذب، فاقصرت بذلك الرواية على شخصيتين رئيسيتين "هو" و"حياة"، فكانت قصة حب قصيرة من تأليف البطلة، تقوم على حوار بين حبيين .

ومن الواضح أن الساردة منبهة بشخصية البطل "هو" أو "صاحب المعطف" كما يحلو لها أن تسميه، فتقول مبدية إعجابها به: "ربما تمنيت سرا لو كان هذا الرجل لي، إنه على قياس صمتي ولغتي ومطابق لمزاج حزني"¹⁴، ولأنها تريد أن تخلع عن ذلك الرجل صمته تواصل كتابة القصة، كما تحاول الكشف عن أسرار "يوم كان هي أن أعرف لماذا دخل هذا الرجل دير الصّمت، واختصر اللغة حتى لم تعد تتجاوز بضع كلمات تُراوُح بين "حتماً" و"قطعاً" و"دوماً" وكأن كل الحياة يمكن أن تختصر بها.

لماذا حوّل العالم كلمات قاطعة، والحب كلمات متقاطعة، يصعب على أية امرأة أن تجاريه فيها أو تهزّمه؟¹⁵

تبدأ القصة بذهاب "حياة" إلى قاعة السينما بقسنطينة لمشاهدة فيلم، وهنا تلتقي بذلك الرجل في عتمة قاعة السينما فتربكها عيناه، ويختزن أنفها رائحة عطره ويقول لها كلمتين (قطعاً، حتماً) فتتوهم بأنه بطل قصتها.

12- فاضل ثامر، المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط1، 2004، ص11/10.

13- ينظر: علي عبيد، الصّمت في السد لمحمود المسعدي، مجلة إبلا، تونس، مجلد 2، 1999، ص 69/68.

14- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص53.

15 - أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص 260.

يتكرر اللقاء في مقهى الموعد وهو المكان الذي يلتقي فيه أبطال الرواية، وهنا يقترب منها الرجل ذو الثياب السوداء وتشم عطره ويقول لها كلمة السر "قطعا" فتخرج معه، وتبدأ قصة حب بينهما تصل إلى حد الخيانة لزوجها الضابط الكبير، وفي آخر الرواية تتوالى الأحداث والمفاجآت، فتكتشف الساردة ومعها القارئ أن ذلك الرجل ليس هو الذي جلس بجوارها بقاعة السينما، بل هو صديقه، وقد استعمل عطره وسكن بيته، وعندما تحاول أن تفهم الموقف، تكتشف بأنه رجل قارئ جيد لروايتها فأعجب بها وتأثر ببطل روايتها "خالد بن طوبال"، فتقمص شخصيته واستعار اسمه خاصة وأنه يحمل نفس التشوه الجسدي الذي يحمله "خالد بن طوبال"، لتقرر البطلة "حياة" في الأخير البحث عنه في مقهى الموعد، وبدل أن تجده وجدت صورته في الصحيفة مع خبر موته، فتقرر الذهاب إلى قبره، وتنتهي القصة هناك وتعود إلى حياتها السابقة.

3. أصناف الصمت وتحليلاتها في رواية "فوضى الحواس":

يتخذ الصمت في الرواية أشكالاً متنوعةً "فنجد الراوي أو السارد يعبر عن الصمت بالفراغ أو الفجوات أو البياض أو الإخفاء أو السكوت حيناً، وبذكر الصمت أو مشتقاته أو مدلولاته حيناً آخر"،¹⁶ كما هو الشأن في رواية فوضى الحواس لأحلام مستغانمي التي نريد إبراز رمزية الصمت فيها واطهار دلالاته وتحليله فيها.

1.3. استخدام التنقيط: تساهم علامات الترقيم تيسير وتوصيل المعنى إلى المتلقي ويقصد بها: مجموعة علاقات لا أثر لها في سلسلة الكلام أثناء القراءة بصوت مرتفع، لكن أثرها يبرز كأدلة ضابطة للنبر فقط. وهي بهذا المنظور بالذات تكون دالة، فغيابها أو تغيير مواقعها غالباً ما يكون سبباً في اتساع الدلالة، أو إنتاج معنى نقيض¹⁷، فهي تؤثر في الوقفات أو لحظات الصمت وتمنح مدلولاً جلياً في النص. فالترقيم أفصح من الكتابة عن الجوانب العاطفية والوجدانية كما يفشي للكاتب عن أسرار الشعور الدفينة¹⁸، فبرسمه لعلامات الترقيم يكون أكثر حرية من كتابته للحروف. والصمت يدل على البياض بين الكلمات والجمل بنقط متتابعة قد ينحصر في نقطتين أو يتجاوز إلى ثلاث أو أكثر، وتوظيف نقاط الحذف في الرواية لغة لها دلالاتها الخاصة.

ومن النماذج التي وردت في الرواية نجد قول الروائية: "ولكنني تقبلت ذلك اللقاء كما جاء. مدهشاً.. مباغثاً.. موجزاً".¹⁹ من شدة اندهاش البطلة من هذا اللقاء الغير متوقع وسعادتها به وصفته بكلمات مبعثرة

16- عمار بشيري، تحلي الصمت في "هواجس غير منتهية" لعبد الله أبي الهيف، مجلة إشكالات، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر، العدد الثالث، 2013، ص 69.

17- ينظر: محمد الماكري، الشكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1991، ص 240.

18- ينظر: عبد الستار بن محمد العوني، مقاربة تاريخية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 26، العدد 2، 1997، ص 304.

19- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص 151.

تتخللها نقطتين (..) فهي لم تجد الكلمات لتصف روعة ودهشة هذا اللقاء، وهنا جمعت الروائية بين الكتابة اللغوية والظاهرة البصرية التي منحت النص أبعاداً جماليةً

وفي مقطع آخر تمثل هذا النوع في حوار بين البطلين:

"- ولكنني لا أعرف عنك شيئاً.."

- هذا أجمل.

- ولا تعرف عني أكثر من وهم الموسلين..

- لا يهم..

- وتعتقد أنك تستطيع إيقاف صغير القطارات.. وندائها السري داخلي..؟

- قطعاً..

- وهل تظن أنه من السهل أن نكون عاشقين.. في هذا الزمن المضاد للحب؟

- طبعاً

- ولكننا نذهب نحو تورط عشقي..

- حتماً يا سيدي! "20

جاءت إجابات خالدة جد مختصرة انحصرت على (هذا أجمل - لا يهم - قطعاً - ...) ودائماً ما كانت إجاباته تعتمد على كلمات محدودة، وإضافةً إلى كلامه الموجز استعانت الكاتبة بنقاط التتابع وعلامات التعجب والاستفهام وهو ما عكس لحظات الصمت التي تخللتها للبطلين دلالة على الحديث الذي لم يُريدا التصريح به.

وفي حديث آخر بين البطلة وأخوها ناصر يقول لها: "ولأنك كاتبة عليك أن تصمتي.. أو تنتحري. لقد تحوّلنا في بضعة أسابيع من أمة كانت تملك ترسانة نووية.. إلى أمة لم يتركوا لها سوى السكاكين.. وأنت تكتبين. وتحوّلنا من أمة تملك أكبر احتياطي مالي في العالم، إلى قبائل متسولة في المحافل الدولية.. وأنت تكتبين. هؤلاء الذين تكتبين من أجلهم.. إنهم ينتظرون أن يتصدّق عليهم الناس بالرّغيف وبالأدوية.. ولا

يملكون ثمن كتاب. أمّا الآخرين فماتوا. حتّى الأحياء منهم ماتوا.. فاصمتي حزناً عليهم...!"²¹ في هذا الحوار يكشف ناصر لأخته حياة أحوال الأمة العربية، ويتخلل حديثه علامات التنقيط (..) دلالةً على الصمت الداخلي الصاحب والمهيأ للانفجار لما يجري في الواقع، كما جاء أسلوب التنقيط من أجل التعبير عن النصيحة الكلام المحظوف وبهذا الصمت يريد إيصال ما يعجز عنه الكلام، ولهذا أمر أخته بالصمت حزناً على ما آل إليه حالة الأمة العربية.

2.3. ايراد لفظة الصمت: يمثل في هذا المستوى مدى تكرار لفظة (صمت) وما يدل عليها، ويكون ذلك بـ "ايراد إشارة نصية إلى وجود الصمت متخللاً في الحوار، في شكل يمثل تعليقاً سردياً بواسطة الراوي، وذلك عبر ذكر كلمة (الصمت)،"²² هنا يعبر الراوي بمادة (صمت) ومشتقاتها.

نذكر بعض النماذج من حالات الصمت التي أوردتها الروائية، وهي كثيرة لا يسعنا ذكرها كلّها:

- "هو الذي بنظرة، يخلع عنها عقلها، ويلبسها شفتيه. كم كان يلزمها من الإيمان كي تقاوم نظرتة!

كم كان يلزمه من الصمت. كي لا تشي به الحرائق!"²³

- "هو الرجل الذي تنطبق عليه دوماً، مقولة أوسكار وايلد "خلق الإنسان اللغة ليخفي بها مشاعره".

مزال كلما تحدّث تكسوه اللغة، ويعريه الصمت بين الجمل."²⁴

- "كادت تسأله: لماذا لبس ابتسامته معطفاً للصمت، اليوم بالذات، بعد شهرين من القطيعة؟"²⁵

- "وقبل أن تسأل، بدا لها غير مكترث إلا بصمتها امام ضحكته.

... ها هي اليوم تقاوم عادتها في الكلام. وتجرب معه الصمت، كما يجرب معها الابتسام.

الابتسامة الغائبة، صمته أو لغته الأخرى التي يبدو وكأنه يواصل بها الحديث إلى نفسه"²⁶

21- أحلام مستغاني، فوضى الحواس، ص129.

22- فاتح عبد السلام، الحوار القصصي (تقنياته وعلاقاتها السردية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص52.

23- أحلام مستغاني، فوضى الحواس، ص9.

24- المصدر نفسه، ص11.

25- المصدر نفسه، ص12.

26- أحلام مستغاني، فوضى الحواس، ص12.

- "هي لا تملك إلا أن تصمت، كي ينصتا معاً إلى صخب الصمت بين عاشقين سابقين.

أن تخلق الآن للصمت صوتاً، يغطي على صمتها. أن تخلق الآن أجوبة لكل سؤال".²⁷

يبدو في هذه المقاطع هيمنة الصمت على عالم شخصيتي حياة وخالد، من خلال عدم تصريحهما بكل المشاعر خاصة خالد إذ كان يقتصر فقط على بعض التلميحات ويرى أن في صمته معنى أعمق من الآخرين، ممّا يدفع بالساردة والمتلقي إلى إعادة ملئ هذه الكلمات الصماء.

- "هو رجل يشي به سكوته المفاجئ بين كلمتين.

ولذا يصبح الصمت معه حالة لغوية، وأحياناً حالة جوية، تتحكم فيها غيمة مفاجئة للذكرى".²⁸

- "ومازلت أنثى الصمت، وأنثى الأرق.

استخدمت الروائية الصمت بوصفه علامة دالة على الانبهار والخوف، فهو يأتي تعبيراً عن المشاعر الدفينة التي يخفيها الإنسان.

فمن أين آتي بالكلمات، كي أتحدث إليهنّ عن حزني؟"²⁹

- "الصورة لحظة صمت طويل.. إنها كالرسم، تجربة في الصمت".³⁰

- "كان همّي أن أعرف لماذا دخل هذا الرجل دير الصمت".³¹

- "ماذا تركت خلفك؟

يصمت. ويطول صمته. تتذكر أنّه يجيب هكذا عن الأسئلة التي لا تستحقّ الجواب. فتصحّ خطأها".³²

27- المصدر نفسه، ص15.

28- المصدر نفسه، ص16.

29- المصدر نفسه، ص125.

30- المصدر نفسه، ص323.

31- المصدر نفسه، ص260.

32- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص160.

في هذه النماذج نلاحظ أن الصمت يعود في أكثر الأحيان على البطل الذي لا يتحدث كثيراً، وتقتصر إجاباته على جمل قصيرة تخفي الجزء الأساسي للمعنى، فهو يرى أن الكلمات لا جدوى لها أمام الصمت، فخالد شخصية صامتة وله أسئلة معكوسة تأخذك بسرية لأسئلة أخرى، وهذا ما يدفع بالمتلقي إلى التفكير العميق، وصمته كان دلالة على كبرياءه الممزوج ببعض الغرور ليزيد من إغراءه.

- "وأحب صمتك.."

هذا أجمل اثنين أن الحيوانات لا تكذب لأنها لا تتكلم. وحده الإنسان ينافق لأنه حيوان ناطق.. أي حيوان ممثل.³³

في هذا المثال أكد البطل أن الكلام ما هو إلا وسيلة كذب يُتقنها الإنسان للدخول في متاهات تافهة، حين أن الصمت أصدق وأدق منه في التّحاور. وهذا ما جعل بطل الرواية يدخل دُور الصمت ويثير في البطلة شهية الأسئلة والفضول والبحث عن هذا الرجل الذي لا يُتقن غير الصمت بكلمات قليلة فتحت لها مجال الكتابة. وهذا ما جعل تحول الصمت أو ما يدل رمز جمالي، له دلالة على أن المعنى في الرواية لم يعد محصوراً في لحظات تعبير الروائية بواسطة اللغة.

تعددت نماذج الصمت في الرواية، وبعملية إحصائية نجد لفظة (الصمت) وردت مائة وثمانية وستون (168) مرة في الرواية. وقد اختل الصمت مساحة كبيرة في الرواية فقد وظّفته الروائية بشكل كبير لدرجة أصبح معها الصمت عُقدة الرواية التي دارت حولها الحكاية، ولا يوجد صفحة إلا وقد احتوت على (الصمت)، والصمت في الرواية كان حديث المشاعر والأعماق، والحوار الذي كان يدور بين الساردة وبطل الرواية هو كلام الصمت كلام الأحاسيس الذي يحمل في داخله أكبر من أن تنطق به الكلمات، فالصمت إذن ليس فراغاً من المعنى بل له دلالات عميقة لا تفهم إلا بتعمق في القراءة.

3.3. الصمت في الحوار:

يتخلل الحوار في بعض الأحيان صمت قصدي يحمل من وراءه دلالات عميقة والصمت في الحوار "هو توقف زمني قصدي يخترق كلام الشخصيات في المشهد، ويكون لقصديته أثر في توجيه الحوار واستمراره ودلالته. وهو خيار يعتمد إليه الكاتب لغاية تشبه الغاية في إظهار الكلام في شكل ملفوظات محددة."³⁴ يأتي الصمت هنا لتحقيق غاية فنية وجمالية كما أنه يحيل إلى مساحات معينة، ومن أمثلته في الرواية:

33- المصدر نفسه، ص158.

34 - فاتح عبد السلام، الحوار القصصي (تقنياته وعلاقاته السردية)، ص 50.

"- أنت رجل يغري بطرح الأسئلة معكوسة.. فهل لديك شجاعة كافية للردّ على أسئلتِي؟

أجاب بتحدّ مازح:

- هذا عائد إلى ذكائك!

رفعت التحديّ. وطرحت سؤالِي الأوّل:

- أيّ اسم كنت تريد أن تحمل؟

وجاء جوابه مدهشاً:

- الاسم الذي اخترته لي في كتابك.. إنّه يناسبني

(...)

- ولكن.. أنا لم أختّر لك اسماً بعد..

ردّ بالسخرية نفسها:

- فليكن.. يناسبني تماماً أن أبقى بلا اسم!

- ولكنّ هذا يزعجني.. ألا يمكنك أن تخلع قليلاً غموضك؟

- وحده الحبّ يعرّينا يا سيديّ..

- هل أفهم أنّك عاشقاً؟³⁵

قصّدت أحلام إلى هذا الحوار لمحاولة الكشف عن شخصية (صاحب المعطف) لكن أسئلتها لم تجد نفعا معها فقط كان شخصا يتقن التلاعب بالحديث، وكلّ جواب إلا وكان بداية لأسرار أخرى، حديثه الصامت أدخل القارئ في بحر من التساؤل هو الآخر يريد أن يعرف من هذا الشخص الغامض الذي يعرف كل شيء عن حياة، ولما هذه الأجوبة المعقدة في حديثه.

35 - أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص 80.

4.3. شعرية الصمت في المسكوت عنه:

اعتمد الكاتبة في روايتها على عنصر الجسد بلغة ترميزية غير مباشرة، هنا تتحول الممارسة الجنسية إلى ممارسة كتابية: اشتهاء الكلمات، اشباع الغرائز...، فالكلمات ذات التأثير المزدوج، والجمال المشتبه والمرغوب، والتمرد الجسدي على القيود، وطلب الأناقة في الحس والملبس والإغراء، وكل هذه الأشياء التي ذكرت في رواية "فوضى الحواس" هي نوع من الاحتفاء بالجسد، وتدليله، وإبرازه، وعرضه، هنا محاولة لإبراز المواجهة للقوى الخارجية بشكل متخفي تحت ستار الكلمات. مثال ذلك قول الساردة:

"قال فقط:

- شهية أنت اليوم..

ثم أضاف ونظراته تتدحرج على ثوبي الأسود نفسه.

- أحبك في هذا الثوب..

ثم واصل بعد شيء من الصمت:

- وأحسده!"³⁶

في هذا المثال نلاحظ أن فعل المسكوت عنه تمثل في جسد "حياة" ودلت عليه الكاتبة ب: (شهية، أحبك، الثوب الأسود، أحسده)، اختارت البطلة هذا الفستان الذي يبرز مفاتيح جسدها ويثير البطل عن قصد، هنا الكاتبة لم تدلي برغبة البطلين لكن كشفت عن ما يدور في نفسيهما بما يدل على رغبتهما.

تعدّ السينما ظاهرة حضارية غربية في مجتمع عربي محافظ، لكن الكاتبة وضعتنا أمام ظاهرة جريئة تمثلت في خروج "حياة" إلى السينما وبمفردها في هذا الفضاء السيء السمعة في مجتمع قسطنطينة المحافظ، وتروي لنا الساردة الأجواء في السينما وكيف كانت شبه خالية، والأمر الذي أثار انتباهها هما المرأة والرجل الذين كانا أمامها، تقول في ذلك: "وحدهما رجل وامرأة، كانا يجلسان على انفراد في آخر القاعة ويبدو أنهما كانا هنا لسبب آخر."³⁷ "وهما الآن يتبادلان اللّمسات المشبوهة على مرأى منها."³⁸ هنا تتجلى دلالة الفعل المسكوت عنه في الألفاظ

36 - أحلام مستغاني، فوضى الحواس، ص 150.

37 - أحلام مستغاني، فوضى الحواس، ص 45.

38 - أحلام مستغاني، فوضى الحواس، ص 49.

الآتية: (وحدهما، على انفراد، آخر القاعة، ظلام، ...)، هذه الظواهر أعطت تلميحاً للكاتبة بأنهما هنا لسبب آخر غير مشاهدة الفيلم، لكن الكاتبة لم تصرح بهذا السبب وقدمت دلائل عليه وقوفاً على عتبة المسكوت عنه.

5.3. الصمت في الفجوات الزمنية:

يتجلى هذا النوع من الصمت من خلال تقنية تسريع السرد المتمثلة في الخلاصة والحذف، يتم "تسريع إيقاع السرد حين يلجأ السارد إلى تلخيص وقائع وأحداث فلا يذكر عنها إلا القليل، أو حين يقوم بحذف مراحل زمنية من السرد فلا يذكر ما حدث فيها مطلقاً".³⁹ يلجأ الكاتب إلى هذه التقنية لتلخيص الأحداث في أيام أو أسابيع أو شهور أو سنوات، اعتمدت الكاتبة على هذه التقنية بكثرة في روايتها ومن النماذج الواردة في الرواية، قول "السارد": "عشرة أيام من الترقب الصامت. حاولت خلالها أن أبجّاهل أنني أنتظر شيئاً. ولكنني لم أستطع أن أفعل غير ذلك"⁴⁰ اختزلت الكاتبة هنا مدة عشرة أيام في سطرين، بالرغم من أن هذه المدة قصيرة إلا أنها بدت طويلة بالنسبة إليها لما حملته من شوق وأسئلة.

وفي مقطع آخر تحذف الكاتبة فترة زمنية من حياتها وتشير إليها بـ "سنتين" في قولها: "كلّ ما كان يعني، أن أكتب شيئاً. أي شيء أكسر به سنتين من الصمت".⁴¹ قفزت الساردة بزمن السرد مدة سنتين، لتصمت عن أحداث لا أهميتها لها سردياً، بغية تسريع السرد وتجاوز الأحداث غير المهمة، لأنّ ما يهم هو كسر الصمت بكتابة شيء ما.

في المقطع التالي تحذف الكاتبة مدة زمنية ترتبط باليوم الذي بدأت فيه "حياة" الكتابة، تقول: "يوم بدأت هذا الدفتر ما كانت يتّبي أن أفلسف الأمور حولي".⁴² اقتصرت الكاتبة على (يوم بدأت) هي لم تحدد الفترة التي بدأت فيها بالكتابة وإنما تركتها مجهولة لدى القارئ.

لجأت الكاتبة إلى هذا النوع من التقنيات لتتجاوز أحداثاً لا تستدعي التفصيل فيها، إما لعدم أهميتها أو لإثارة المتلقي، في هذه الفترات التي كانت تصمت فيها الكاتبة وتختصرها بمدة زمنية معينة منحت النص بعداً جمالياً خالياً من الإطناب.

39 - محمد بوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، دار لامان، المغرب، ط1، 1431هـ/ 2010م، ص 93.

40 - أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص 99.

41 - أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص 23.

42 - أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، ص 118.

4. خاتمة:

- الروائية أحلام مستغانمي إتبعَت في كتابتها روايتها "فوضى الحواس" على الصّمت الذي كان عمودها الأساسي، وكان قيمة أساسية ضمنت للنصّ شعريته.
- لقد استعانت الكاتبة في نسيج روايتها بالصّمت وجعلته جزء من أجزاء الرواية على مستوى اللفظ والصّورة وعملت على أن ينصهر في بنيته القصصية وأن يضبط بوصلته داخل النصّ الروائي.
- الصّمت قضية إشكالية تحمّل مجالات دلالية واسعة ممّا يسمح للقارئ بتقديم عدّة تأويلات لاستنطاق مدلولاته.
- لم يعد الصّمت يُعبر عن العجز والضعف في الدّراسات الحديثة، بل أصبح يُمثّل نقاط القوّة وعمق الأحاسيس وفلسفة الحياة، بل هو طريق من طرق التعبير يتوخّاه كلّما شعر بالحاجة إليه.
- اتجهت الروائية إلى الصّمت للتعبير عن قضايا الهوية الوطنية.
- فراءتنا للغة الصّمت في رواية "فوضى الحواس" أظهرت لنا أنّ الكاتبة (حلام مستغانمي) لها وعي كبير بأهمية الصّمت ودلالاته في المتن السّرديّ الروائي.
- الصّمت شحنة دلالية و طاقة شعورية موحية تُخفي وراءها خطاباً دينياً. والروائية من خلال هذا الصّمت أحالت المتلقي إلى فضاءات النصّ الناقصة بُعية تكميلها.
- تكمن شعريّة الصّمت في خلقها لذلك الفضاء الرّمزيّ الذي يحمل في طيّاته العديد من المعاني.

5. قائمة مصادر ومراجع البحث:

1. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة (ص، م، ت)، المجلد 2، دار صادر، د.ط، د.ت.
2. أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط5، 1998.
3. عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992.
4. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د.ط، 1423هـ.

5. عباس محمد رضا، العلامة البصرية والبنى الرامزة (قراءة في شعر المهادي الفرطوسي وسردياته)، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2012.
6. فاتح عبد السلام، الحوار القصصي (تقنياته وعلاقاته السردية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999.
7. فاضل ثامر، المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط1، 2004.
8. الزبيدي محمد مرتضي الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد العليم الطحاوي، ج4، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط2، 1987.
9. محمد بوعزة، تحليل النص السردى (تقنيات ومفاهيم)، دار لامان، المغرب، ط1، 1431هـ / 2010م.
10. محمد الماكري، الشكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991.

المجلات:

1. بابة غيبوب، قراءة في صخب الصمت في رواية "بحر الصمت" لياسمينه صالح، دراسات لسانية، لونيبي علي، الجزائر، مجلد 4، العدد 1، 2020.
2. عباس محمد رضا ومهدي عبد الأمير مفتن، مصطلح الصمت، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية جامعة بابل، العدد 24، كانون الأول 2015.
3. عبد الستار بن محمد العوني، مقارنة تاريخية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 26، العدد 2، 1997.
4. علي عبيد، الصمت في السد لمحمود المسعدي، مجلة إبلا، تونس، مجلد 2، 1999.
5. عمار بشيري، تجلي الصمت في "هواجس غير منتهية" لعبد الله أبي الهيف، مجلة إشكالات، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر، العدد الثالث، 2013.
6. محي الدين حمدي، مدخل إلى الصمت في النص السردى، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 8، جانفي 2011.